الدكتور تمام حسّان رائد علم اللغة الأول

محمد حماسة عبد اللطيف

فقدت الأوساط العلمية والدراسات اللغوية رائدًا عظيمًا من روادها الذين أرسوا مبادئ الدرس اللغوي الحديث في مصر والعالم العربي، وعالمًا فذًا من علماء الدراسات القرآنية المؤسّسة على النظر اللغويّ والأبنية الصرفية والتركيبية. ففي الحادي عشر من شهر أكتوبر ٢٠١١م انتقلت روح العالم الجليل الدكتور تمام حسان إلى بارئها، ورحل عن عالم ملأه علما شغل به الناس، وأضاء لهم به كثيرًا من سبل المعرفة والهداية.

لقد كان الراحل الجليل قامة شامخة، ومثالاً فذًا، ونموذجًا فريدا يندر تكراره بين العلماء، فقد كان أحد المخلصين البررة الذين نذروا للعلم حياتهم، ووهبوه نور أبصارهم، يرون العمل في سبيله فرضًا مقدّسًا، ويرتخصون من أجله كلَّ غال وثمين، لا يشغلهم عنه شاغل، ولا يلُهيهم عنه لاهٍ، ولا يصرفهم عنه صارف، وكان هذا دأبه منذ تخرج في دار العلوم ١٩٤٣م، وأكمل دراسته العليا في لندن بإنجلترا سنه ١٩٥٢م.

ولم يلبث بعد عودته من بعثته في أوائل النصف الثاني من القرن العشرين أن أصبح بما أبدع في مجال الدراسات اللسانية عالم اللغة الأول بغير منازع، وصارت أعماله قبلة الدارسين وطلاب العلم المتخصصين، فلا تكاد تجد بحثًا علميًا، أو رسالة جامعية، أو كتابًا مؤلفًا في الدرس اللساني إلاّ وفي ثبت مراجعه كتاب من كتب الدكتور تمام حسان، أو بحث من بحوثه الكثيرة المتنوعة التي نشرت في مجلات العالم المتخصصة. ولا غَرْو فهو الرائد الذي طوّع النحو العربي لعلم اللغة الحديث، وجمع فكره اللغوي بين الأصالة والمعاصرة، وقد مثلت دراسته في الأزهر ودار العلوم منبعه الأصيل ومعينه التراثي الشامخ، ومثلت دراسته في لندن مورده المعاصر الحديث، وألف عقله الفذ بين هذا وذاك، فجاءت أعماله بريئة من عجمة الترجمة، وتجلت للناس عربية الوجه واللسان، ولقد كان على وعي دقيق بهذا المسلك الذي سلكه، لأنه يرى أنه السبيل إلى نهضة شاملة، يقول:

"تشعبت المسالك أمام الشعب بعد أن تثاءب وتمطى ونفض عن نفسه غبار الموت، فوجد أمامه طريقا في الماضي يقوده إلى التراث العربي الخصب، ورأى أنه لو بعث هذا التراث وأحياه لكان دافعا لعزة جديدة لا تقل روعة عن التاريخ العربي نفسه، ووجد أمامه طريقًا في المستقبل، معالمه ما في أيدي الأمم من علوم ومعارف يمكن أن ترقى بمصر إلى مستوى هذه الأمم ذات العلوم والمعارف. ثم رأى أنه لو سلك الطريق الأول فحسب لانقطع به التاريخ عن الحياة، ولو سلك الثاني فحسب لانقطعت به الحياة عن التاريخ، ففضل أن يأخذ بنصيب من التراث العربي يوحي إليه بالاعتزاز، ونصيب من الثقافة المعاصرة يمنحه العزة. إذن فجلينا نهب بين الشرق والغرب، لا في الثقافة وحدها، وإنما هو كذلك في العادات وطرق المعيشة. وهذه النفس الموزعة بين الشرق والغرب لابد أن تكون نفسا قلقة غير ذات استقرار، حائرة تتطلب الهدى، طموحًا تتطلب وحدة الهدف ووضوحه، فإذا أضفنا إلى هذا العنصر من عناصر الحيرة والاضطراب والقلق أن المقادير ألقت على كاهل جيلنا هذا أخطر تبعة تلقى على الأجيال، ألا وهي تبعة البناء من الأنقاض، وتمهيد الطريق ووضع معالمه للأجيال القادمة، تبين لنا مقدار خطورة هذا الجيل في التاريخ المصري الحديث"[1].

هذا هو المنطلق الذي ينطلق منه، ويبدأ على أساسه أول عمل علمي له وهو كتابه "مناهج البحث في اللغة" الذي يمزج فيه بين الفكر اللغوي الأوربي والفكر العربي. فيقدم فيه منهج الأصوات

(الفوناتيك) ومنهج التشكيل الصوتي (الفونولوجيا) ومنهج الصرف، ومنهج النحو ومنهج المعجم ومنهج الدلالة في هيكل النظرية الغربي وتطبيق على اللغة العربية. وقد كان هذا الكتاب من أوائل الكتب اللغوية في هذه السبيل، وقد فتح بابا من أبواب الدرس اللغوي المعاصر.

وقد تلا هذا الكتاب كتابه الآخر وهو "اللغة بين المعيارية والوصفية" الذي صدر سنه ١٩٥٨م، وهو يعد استكمالاً لموضوعات الكتاب، مع شرح أعمق لمشكلات اللغة العربية التي رأى أن معظم مشكلاتها تكمن في أن كثيرًا من الناس يشكون داء في النحو العربي لا يستطيعون تشخيصه. فإذا أرادوا تشخيص هذا الداء انصرفوا دون قصد إلى سرد أعراضه فتكلموا في جزئيات النحو لا في صلب المنهج. وشتان بين من ينقد أجزاء المادة ومن يريد علاج الفلسفة التي انبنت عليها دراستها، يقول: "وحين نظرت في كتب اللغة العربية فطنت إلى أن أساس الشكوى هو تغلب المعيارية في منهج حقه أن يعتمد على الوصف أولاً وأخيرًا. وإن هذه المعيارية لتتضح في طريقة التناول، كما تتضح في طريقة التعبير في جمهرة كتب النحو والصرف والبلاغة، لا نكاد نستثني منها إلا قلة ظهرت في أول عهد العرب بهذه الدراسات، فقامت على الوصف في الكثير من أبوابها، ولم تقع في المعيارية حين وقعت فيها إلا من قبيل التوسع في التعبير. من ذلك كتاب سيبويه، وكتابا عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"[٢].

يمثل هذان الكتابان مع بعض الأبحاث المنشورة في بعض المجلات المتخصصة في فترة الخمسينيات والستينيات مرحلة "المنهج الوصفي" الذي يعد الدكتور تمام حسان أحد المسئولين عن ذيوعه وانتشاره في مصر والعالم العربي، فقد تأثر تلاميذه وغيرهم بكثير من أفكاره وتبنوها، وتوسعوا فيها، وقام عدد من الرسائل الجامعية على أساسها.

في سنه ١٩٧٣م أخرج الدكتور تمام حسان كتابه "اللغة العربية معناها ومبناها" الذي يعد جوهرة فكره اللغوي، وقمة نضجه العلمي ففيه نظرة شاملة، ونظرية متكاملة عن اللغة العربية تقوم على القرائن النحوية التي تضمن تحقيق المعنى في الجملة، وهي قرائن لفظية وقرائن معنوية، وهذه القرائن تتضافر وتتعاون معًا من أجل الوضوح وعدم اللبس في الجملة، والقرائن اللفظية هي: العلامة الإعرابية، والرتبة والصيغة، والمطابقة والربط والتضام، والأداة، والتنغيم. والقرائن المعنوية هي: الإسناد، والتعدية، والغائية، والمعية، والظرفية، والتقوية، والملابسة، والتفسير، والإخراج، والخلاف، والنسبة، والتبعية. وكل هذا مشروع في هذا الكتاب، وتعنينا منه النتيجة المهمة وهي أنه إذا اتضحت القرائن أمكن الإعراب ولو لم يكن لمفردات معنى معجمي، وأن بعض القرائن قد يغني عن بعض عند أمن اللّبس، وأن التعليق هو الفكرة المركزية في النحو العربي، وأن فهم التعليق على وجهه كافٍ وحده للقضاء على خرافة العامل النحوي "لأن التعليق يحدد بواسطة القرائن معاني الأبواب في السياق، ويفسر العلاقات بينها على صورة أوفى وأفضل وأكثر نفعا في التحليل اللغوي لهذه المعاني الوظيفية النحوية"[٣].

هذه فكرة واحدة من ضمن عدد من الأفكار الأساسية المهمة في هذا الكتاب الرائد الذي صدر عنه عدد كبير جدًا من الرسائل الجامعية منذ صدوره. وجاءت هذه الأبحاث والرسائل كالشارحة أو المفصلة، ويمكن القول دون مبالغة إن الدرس اللساني اتجه وجهة تمامية صرفًا من ستينيات القرن الماضي (القرن العشرين) حتى الآن، لأنه فتح بآرائه وأفكاره آفاقًا جديدة، ورؤى متطورة، ومسالك لم تكن من قبل معروفة، وأوضح ما فيها أنها أصلية ومعاصرة. تراثية حديثة في بوتقة واحدة.

لست هنا بصدد سرد كل أعمال أستاذنا الدكتور تمام، وهي كثيرة في جدواها وأثرها، ولكني فحسب أردت أن أكشف جانبا من جوانب تأثيره الفعال، بحيث نستطيع القول إنه لا يوجد لغوي حديث كوّن مدرسة لغوية ذات سمات واضحة مثل الدكتور تمام حسان، فكل كتاب من كتبه وكل بحث من أبحاثه التف حوله عدد من الدارسين ورأوا فيه أكثر من نقطة تصلح أن تكون مجالاً لرسالة علمية جديدة، سواء أكان ذلك بإشراف الدكتور تمام أم كان بإشراف غيره.

وفي السنوات العشرين الأخيرة من سني عمره المبارك صرف همته للدراسات القرآنية المؤسسة على نظرياته اللغوية، فكشف بما أوتي من قدره، وبما مُنح من بيان روائع القرآن الكريم، وجليّ أساليبه في طرائق التعبير ومسالك البيان، وأخرج للناس كتابًا ضخمًا في جزأين سماه "البيان في روائع القرآن"، وما لبث هذا الكتاب أيضًا أن صار مثار اهتمام الباحثين، ومبعث إلهام لهم. وعطفوا عليه ينهلون منه، ويصدرون في دراساتهم عنه. وقبل أن توافيه المنية بفترة وجيزة أخرج لي من حقيبته أصول كتاب جديد. يطلعني عليه، فوجدته دراسات عن القرآن أيضًا، ولعله أوشك على الظهور الآن، وعجبت وهو في الرابعة والتسعين ما يزال قادرًا على البحث والتأليف.

لقد عاش حياته كلها للعلم، ولم يكف يومًا عن النظر والبحث والتفتيش وهو ممن ينطبق عليهم الأثر "خيركم من طال عمره وحسن عمله". وقد أطال الله عمره، وأحسن عمله، وبارك له فيه، وكان لا يفتأ – وهو العالم الشامخ المكتمل – يجدد معارفه، لم يجمد عند مرحله من مراحل عمره، كما يفعل كثير غيره،

ويعيش حياته بعدها يجتر آثاره ويكرر أعماله ويرددها؛ تلمس ذلك في تنوع أعماله، وارتباط كل مرحلة من مراحل عمره بطور مختلف من أطواره العلمية، ودليل ذلك أنه ترجم عددا من الكتب في صدر حياته بعد البعثة العلمية منها "مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب"، و"الفكر العربي ومكانه في التاريخ"، و"اللغة في المجتمع"، و"أثر العلم في المجتمع"، ولكنه في تسعينيات القرن الماضي، وهو يناهز الثمانين من العمر، يترجم كتابا يعد من أهم كتب نحو النص، الذي زاد الاهتمام به في العقود الأخيرة، وهو كتاب "النص والخطاب والإجراء" لدي بوجراند، وقد صدَّره بدارسة مطولة وافية عن نحو النص؛ فصار كتابه هذا أيضًا قبلة الدارسين، شأنه في ذلك شأن كل ما خطت يمينه من كتاب.

أما عن الجوانب الإنسانية في شخصيته فقد كان رجلاً حباه الله بسطة في العلم والجسم، فكان وقورًا مهيبًا، ولكنه كان يتمتع بهشاشة النفس وحلاوة الروح، وكان يفيض ودًّا ورحمة؛ تلمس ذلك في طريقة سلامه عليك؛ إذ يرفع ذراعه بأقصى ما يستطيع ويهوي بكفه الضخم في كف مصافحه مصحوبة هذه الحركة المرحبة بعبارة "أهلاً" بطريقة لم أسمعها من سواه. وكان لا يبخل بعلمه على أحد سواء أكان من تلاميذه أم كان من غيرهم. وكنت أراه – وقد منَّ الله عليَّ بأن صحبته زمنًا طويلاً – يجد متعه كبيرة في هذا، وسعادة بالغة، ولا يبالي في إجابته على سائله أو يتهيب ما يتهيبه غيره من سرقة الأفكار وانتهاب الآراء.

كان باسم المحيا ضاحك السن، فعلى حين تروعك هيبته ووقاره، تجذبك سماحة نفسه وحلاوة استقباله وصدق مودته وسحر ابتسامته، فتتنازعك مهابته وسماحته، وجلاله وتواضعه فلا تملك نفسك وأنت تقع أسيرًا لمحبته. وقد سرى روحه السمح في كل ما كتب فأحبه أيضا من قرأ له ولم يره.

وهذه دمعه تحددت على غير نظام من قلمي حزنا على أستاذي الراحل الجليل، فسلامٌ عليه في الخالدين.

* * *

الإحالات :

(١) تمام حسان، مقدمة كتاب مناهج البحث في اللغة ص: ج (مكتبة الأنجلو المصرية)١٩٩٠، وقد كانت طبعته الأولى سنة ١٩٥٧م.

(٢) تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١١ ، ١٢ (عالم الكتب) ط٤، ٢٠٠٠ م.

(٣) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص١٨٩ (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م).